الأربعاء: 2023/11/08
التّوقيت: 13:10 – 14:20
عن بعد

الدرس رقم 01: فكرة النّظم في مباحث النّقاد قبل الإمام الجرجاني.

يتَّفق الباحثون في نظرية النظم على وجود فكرة النظم، واستخدام لفظه بين علماء الإسلام من اللُّغويين وغيرهم من النقاد والبلاغيين منذ القرن الثاني الهجري، بيد أن الفكرة لم تكن واضحة تمام الوضوح، ويرجع السبب في ذلك إلى أن واحدًا ممن تعرَّضوا لفكرة النظم لم يكن درسُه لها بقَصْد بيان أسسها وتوضيحها بذاتها، كما كان الحال عند الشيخ عبد القاهر الجرجاني.

والمطالع كتبَ اللغة وإعجاز القرآن والنقد قبل الشيخ عبد القاهر الجرجاني، يُدرك صدق هذه المقولة؛ فقد استُعمل مصطلح النظم، ودار حول فكرته جماعة من العلماء؛ مما يعني أن هذه النظرية القيمة لم تولد مِن العدم، ولم يكن الشيخ عبد القاهر الجرجاني بدعًا من العلماء السابقين عليه.

ويُعتبر **عبد الله بن المقفع** (ت142هـ) الكاتب أولَ من نُسبت إليه إشارة تتعلَّق بالنظم؛ حيث أشار إلى فكرة نظم الكلام عند البلغاء بصورةٍ عامة، في قوله: "فإذا أخرج الناي من أن يكون لهم عمل أصيل، وأن يقولوا قولاً بديعاً، فليعلم الواصفون المخبئون أن أحدهم وإن أحسن وأبلغ، ليس زائدًا على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتًا وزَبرجدًا ومرجانًا، فنظَمه قلائدَ وسموطًا وأكاليلَ، ووضع كل فصٍّ موضعه، وجمع إلى كل لون شبهه، وما يزيده بذلك حسنًا، فسُمي بذلك صانعًا رفيقًا وكصياغة الذهب والفضة صنعوا منها ما يعجب الناس من الحلي والآنية".

شبه إذن ابن المقفع النظم بحبات اللؤلؤ التي يضعها الصائغ منظمة واضعا كل لون في مكانه المناسب، والأمر نفسه بالنسبة إلى الكلام فمتى كانت الكلمات في موضعها مرتبة منتظمة كان الكلام مستحسنا من الناس لنظمه ونسقه.

ولا شك أن الأصول الأولى التي تعتمد عليها فكرة النظم موجودة في الكتب النقدية والبلاغية قبل كتاب "دلائل الإعجاز" للإمام الجرجاني، منذ الجاحظ الذي ابتدأ عنده النظم، حتى أصبح نظرية لها معالم وأصول عند عبد القاهر الجرجانى.

- **الجاحظ:**

قد عرف **الجاحظ (255هـ)** معنى النظم، وأشار إليه في كتاباته فهو كما يقول **شوقي ضيف** مؤسس البلاغة العربية، فلاريب أن إحساس الجاحظ العميق بروعة النظم وما يكسبه الكلام من الرونق والحيوية جعله يؤمن أن إعجاز القرآن في نظمه، ويؤلف في ذلك كتابه المفقود (نظم القرآن) الذى يشير إليه في كتاب (الحيوان)، إذ يقول: "ولي كتاب جمعت فيه آيات من القرآن لتعرف فضل الإيجاز والحذف".

ولقد ألف الجاحظ كتابه (نظم القرآن) بناء على طلب الفتح بن خاقان الذي كان يريد كتابا في الاحتجاج لخلق القرآن، فألف الجاحظ هذا الكتاب، ولعل كان هذا الكتاب –نظم القرآن– أول ما ألف في إعجاز القرآن ونظمه وهو الذي فتح الطريق لمن جاء بعد الجاحظ في الحديث عن إعجاز القرآن وقد ذكره الزمخشري في مقدمة تفسيره، ولعله تأثر بنظراته البلاغية في الإعجاز، ولاريب أن هذا الكتاب المفقود وراء ملاحظات الجاحظ البلاغية والتي نثرها في كتابيه: الحيوان، والبيان والتبين.

يهدف الجاحظ من خلال حديثه عن النظم إلى الرد على أستاذه النظام وأنصاره القائلين بالصرفة الذين أنكروا أن يكون القرآن معجزا بنظمه، وعلى أصحاب المعاني الذين قالوا إن جمال الشعر يمكن في معانيه مبررا أهمية القيم الفنية المتمثلة في جمال الصياغة والتلاؤم اللفظي والانسجام الصوتي والبديع في نظم الكلام.

يحدد الجاحظ النظم في الشعر قائلا "أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا جيدا، وسبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان

كما يجري في الذهان". مؤكدا بذلك على تأليف العبارة وجودة تلاحم ألفاظها وسبكها وإخراجها في قالب واحد في تناسق وانسجام.

لا شك أن للجاحظ إشارات في النظم تضمنها كتابه الحيوان، إذ نراه يكشف عن الدلالات الدقيقة للأبيات، وأشار لما فيها من استعارات وتمثيلات وتشبيهات، والنظم عند الجاحظ فكرة لفظية تعقد على حسن الصياغة وكمال التراكيب، ودقة تأليف اللفظ وجمال نظمه، وأداة شغفه بجودة اللفظ وحسنه أن قدمه على المعنى، فإنه من أنصار اللفظ "والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والمدني، إنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك فإن الشعر صناعة (أو صياغة) وضرب من النسج، وجنس من التصوير". إن اختيار الكلمات وجودة سبكها وتلاحمها في التركيب اللغوي هو المعيار الذي حدد به الجاحظ النظم.

وعلى الرغم من دفاعه عن سبك الألفاظ وإعلاء شأنها فإنه لم يهمل المعنى إذ جعل اللفظ والمعنى في مقابل الجسد والروح أي أن اللفظ للمعنى بدن، والمعنى للفظ روح، أي أنهما ثنائية لا تقبل الفصل فهل هناك بدن بدون روح وهل هناك لفظ دون معنى؟ الإجابة حتما تكون لا وبالتالي فاللفظ والمعنى ثنائية لا تقبل الفصل.

يمكن القول إن الجاحظ أول من مهد لقضية اللفظ والمعنى وأبرز معالمها على الرغم من تناول سابقيه لها حيث قام بلم شتات الجهود السابقة وأضفى عليها لمسته في إشارته إلى النظم.

وقد علق الدكتور **شوقي ضيف** على ذلك محاولا توضيح فكرة الجاحظ بقوله: إنما كان يريد الأسلوب بمعنى أوسع من وصف الألفاظ، إذ أدخل فيه الأخيلة والتصاوير، وكأنما أحس في عمق أن المعاني وحدها لا تكون للكلام البليغ.

وهكذا نجد للجاحظ إشارات إلى النظم، إلا أنها ذو أهمية كبيرة في مجال نظرية النظم، لأنها اللبنة الأولى، والبذرة التي سوف تثمر نظرية كاملة المعالم عند عبد القاهر الجرجانى الذى اتخذ أساسها من كلام الجاحظ وإشارته.

- **ابن قتيبة:**

كان **ابن قتيبة** تلميذا للجاحظ متأثرا به على الرغم أن الجاحظ معتزليا، وابن قتيبة سنيا، وجاء كتابه **(تأويل مشكل القرآن)** الذى يبدو فيه متأثرا بكتاب **الحيوان** للجاحظ ولاشك أننا نجد إشارات إلى فكرة النظم عند ابن قتيبة، فقد كان ذا مهارة لغوية، فاستهل كتاب **(تأويل مشكل القرآن)** بوصف رائع لكتاب الله عز وجل، وصرح فيه أن إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه، وإنه بمعنى سبك الألفاظ وضم بعضها إلى بعض في تأليف دقيق بينها وبين المعاني ...ويشتمل النظم عنده حسن النغم، ودقة التوقع الداخلي، وهو الذى ينجم من تأليف الحروف في النغم كما ينجم عن الفاصلة وأطرافها.

قد كان ابن قتيبة شديد التعصب للعرب ولغتهم، فهو يرى أن فضل القرآن المتمثل في بديع نظمه لا يدركه إلا من عرف لغته، لذلك يرفض ترجمته إلى لغة أخرى، ويتشدد في العناية بالعلامات النحوية والإعرابية وتوخى موضعها في الكلام، وبخاصة في القرآن الكريم عند تلاوته، لأن أي تغير في إعراب كلماته يستتبعه تغير في معناها التي وضعت له.

ولاريب أن نظم القرآن هو البلاغة عند ابن قتيبة، إذ يفصّل القول في فنون البلاغة المختلفة من خلال تطبيقه على الآيات القرآنية؛ ليقف على دليل الإعجاز ويرد على الملحدين. من ذلك ما نراه في باب الحذف والإضمار، فهو يتعرض لمواضع الحذف، ولم يذكر ما وراء الحذف من جودة الحذف وما فائدته، واكتفى ببيان الكلمة المحذوفة وذكر أمثلة كثيرة من القرآن والشعر.

ولا شك أن ابن قتيبة متأثر بالجاحظ في هذا العمل، وإن كان الدكتور **شوقي ضيف** يرى أنه تأثر بالجاحظ في ظاهر عمله من الرد على الملاحدة، وإنه تأثر بأبي عبيدة في صوغ أفكاره.

فلا ريب أن ابن قتيبة خطا بفكرة النظم خطوة أكثر تقدما من الجاحظ إذ طبقها على فنون البلاغة المختلفة، ليكون حلقة في سلسلة تطورها.

البلاغين لم يوضحوا لنا فكرة النظم والغرض منها وإنما هي ومضات في طريق ساروا عليها، حيث فرق **الجاحظ** بين نظم الكلام ونظم القرآن الكريم ولم يشر إلى مصطلح النظم إنما أشار إلى الآتي: (التلاحم، السبك، الإفراغ) وهنا يبرز لنا اهتمام الجاحظ بالنظم، وقد ورد في كلامه مرادفًا للتأليف تارةً، وبمعنى النسق الخاص في التعبير والطريقة المميزة في التركيب تارة أخرى.

- **بشر بن المعتمر:**

جاء في صحيفة **بشر بن المعتمر (ت 210هـ) المعتزلي** ما يشير إلى النظم عندما قال: "فإذا وجدت اللفظة لم تقع موقعها ولم تصل إلى قرارها، وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافية، لم تحل في مركزها وفي نصابها، ولم تتصل بشكلها، كانت قلقة في مكانها نافرة من موضعها فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها"، إن اختيار موقع اللفظة ومناسبتها لبقية الكلمات إشارة ضمنية إلى ائتلاف الكلمات ونظمها أو نسق الكلام، ولو أن بشر بن المعتمر لم يذكر أهمية النحو في تأسيس النظم.

كان لبشر بن المعتمر إشارات تتعلق بفكرة النظم، من وضع الألفاظ في مواقعها اللائقة بها، وذم التكلُّف لذلك، وهذا أيضًا من مضامين فكرة النظم، لكن عنايته بجانب اللفظ ظاهرة، وهو ما يخالف به مجمل الفكرة الجرجانية.

- **أبو الهلال العسكري**

أما بالنسبة **لأبو الهلال العسكري (395هـ)** فقد وضع في كتابه (الصناعتين) بابًا تحت عنوان: في البيان عن حُسن النظم وجودة الرصف والسبك، وخلاف ذلك، وقد ورد النظم في كلامه بمعنى التأليف والرصف والضم، فـ: "حسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا، ومع سوء التأليف ورداءة الرصف والتركيب شعبة من التعمية".

وفي سياق آخر يؤكد أن عدم اختيار الألفاظ المناسبة وسوء تموقعها في التركيب يؤديان إلى الاخلال بالنظم، "...أن يكون لفظك شريفا عذبا، وفخما سهلا، مركزها، ولم تتصل بسلكها، وكانت قلقة في موضعها نافرة عن مكانها، فلا تكرهها على اغتصاب الماكن، والنزول في غير أوطانها... وينبغي أن ترتب الألفاظ ترتيبا صحيحا فنقدم منها ما يحسن تقديمه ونؤخر منها ما يحسن تأخيره".

إن القول بترتيب الألفاظ ومناسبتها لبعضها بوضعها في أماكنها، وحسن تقديمها أو تأخيرها تمثل إشارة ضمنية إلى بعض قضايا النظم دون أن يصرح أبو هلال بالمصطلح. فيرى أن الكلام يحسن بسلاسته وسهولة صياغته تميز لفظه وحسن معناه وهنا وضع إحدى ركائز النظم وهي أن تقع كل كلمة في موضعها أي جودة (الرصف، السبك، الائتلاف).